

إشكالية توطين التفكير العلمي في المجتمع العربي وتأسيس العقلانية من منظور فؤاد زكريا

The problem of the insertion of scientific reasoning into the Arab society According to Fouad Zakariya's approach

بن يخلف دليلا

جامعة الجزائر 2 ابو القاسم سعد الله

dalila.benyekhlef@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/26 تاريخ القبول: 2025/06/03 تاريخ النشر:

2025/09/01

ملخص

يتناول هذا المقال المقال بالتحليل والدراسة تصور التفكير العلمي باعتباره مقوما أساسيا للنهوض الحضاري لدى المفكر العربي فؤاد زكريا كما يتطرق إلى إشكالية توطين ودمج سماته في العقل العربي بغرض تحويله من عقل مقلد وتابع إلى عقل ناقد ومبدع لأن جذور تخلف المجتمع العربي ترتبط مباشرة بنمط التفكير السائد المفتقر إلى العقلانية. إلا أن هذا المشروع النهضوي يواجه تحديات قوية يشخصها فؤاد زكريا وي طرحها بكل شجاعة محاولا بمنهج نقدي تصور حلول لمكافحتها تتبلور في إطار دولة تحقق العدالة الاجتماعية وتضمن الحريات وتضبط التناقضات وتشرف على نظام تربوي يكسر الحلقة مع التفكير اللاعلمي

كلمات مفتاحية: العقل العربي ، التفكير العلمي ، النهضة العربية

Abstract

This article analyzes and studies the concept of scientific thinking as a fundamental component of civilizational advancement according to the Arab thinker Fouad Zakaria. It also addresses the challenge of integrating its characteristics into the Arab mind, aiming to transform it from an

imitative and subordinate mindset into a critical and creative one. The roots of Arab society's backwardness are directly linked to the prevailing mode of thinking, which lacks rationality. However, this renaissance project faces significant challenges that Fouad Zakaria identifies and boldly presents, attempting, through a critical approach, to envision solutions to combat them. These solutions are framed within a state that achieves social justice, guarantees freedoms, manages contradictions, and oversees an educational system that breaks the cycle of unscientific thinking.

Keywords: Arab mind, scientific thinking, Arab renaissance

***المؤلف المرسل: بن يخلف دليلة**

1. مقدمة

لقد طرح تاريخ الفكر العربي منذ القرن الماضي وإلى غاية يومنا هذا جملة من الأسئلة شغلت المفكرين العرب في المشرق والمغرب جيلا بعد جيل أمثال زكي نجيب محمود و الجابري محمد عابد وطه عبد الرحمان وفؤاد زكريا وغيرهم وتتعلق هذه الإنشغالات بتخلف الأمة العربية عن إنجاز نهضتها وعدم مواكبتها للركب الحضاري ولقد حاولوا تشخيص أسبابه واقتراح الحلول لتجاوز هذا الوضع واتفق الجميع حول سؤال رئيسي تمثل في كيفيات تحفيز العقل العربي على العطاء والإبداع وتجاوز حالة العطل التي يعانها والتي تتمظهر في اجترار الأفكار ونقلها واستهلاكها إلى حالة تطويرها وإبتكارها ولقد تجسدت في مشاريعهم النقدية المقترحة للبناء الحضاري المنشود . وسنتناول بالدراسة والتحليل في مقالنا هذا ثابتا أساسيا أقام عليها المفكر فؤاد زكريا (1927م-2010م) منهجه النقدي و المتمثل في التفكير العلمي وانشغل بدراسة آليات توطينه في نسيج الثقافة العربية . وهو أكاديمي مصري وعلم من أعلام الفكر العربي المعاصر المنتهي إلى الجيل الثاني من المفكرين العرب إلى جانب أمين العالم وزكريا ابراهيم وغيرهم ..تميز بالتزامه بقضايا الأمة، بضمير حي وعقل حر و جسد انخراطه في قضايا مجتمعه من خلال العديد من مؤلفاته حول القضايا الحية

للعالم العربي ومنها: «التفكير العلمي»، و«آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة»، و«الجوانب الفكرية في مُختلف النُظم الاجتماعية»، و«الصَّحوة الإسلامية في ميزان العقل» و«الثقافة العربية وأزمة الخليج». كما تميز باطلاعه على الفكر الغربي وباستيعابه الفطن له ومن بصماته في الترجمة: «المنطق وفلسفة العلوم» ل ب .موي والعقل والثورة لهربرت ماركوزه ، الفلسفة الإنجليزية في مائة عام، ل ر. متس ، وغيرها من الترجمات الأنيقة ويعد من رواد الإتجاه العقلاني النقدي في الوطن العربي حيث يعتمد أسلوب المسألة النقدية في كلّ القضايا التي يتناولها مجتهدا للنزول بالتفكير الفلسفي إلى مستوى الواقع وحل المشكلات الفعلية للفرد والمجتمع العربيين .

أيقن فؤاد زكريا بحقيقتين تمثلت الأولى في أن جذور التخلف ترتبط مباشرة بنمط التفكير فالعقل العربي ليس عاجزا عن الإبداع وإنما هو معطل بنمط التفكير السائد الذي يفتقر غالبا إلى العقلانية والثانية أن أصالة كل تفكير ترتكز على النقد بمعناه المتداول المتمثل في فحص المعلومات كلها وتدقيقها ومناقشتها

واستبعاد الظنون والأوهام والذائعات والتوغل إلى البنى التحتية التي تقوم عليها مختلف الرؤى .ولذلك انطلق مشروعه التنويري من تكوين وإرساء روح التفكير العلمي في العقل العربي ، لان هذه الروح هي رحم المنهج النقدي أو أساس كل فكر مبدع كل ذلك بهدف إعماله في فهم مشكلات وقضايا المجتمع ومعالجتها على الوجه الصحيح وتعبيد الطريق لنهوض حضاري حقيقي.

كيف يتصور فؤاد زكريا التفكير العلمي ؟ هل هو تفكير العلماء والمتخصصين ؟ وإذا كان كذلك فكيف يمكننا العمل على نشره الواسع في المجتمع ؟ أين تكمن الواجهة في اعتباره مقوما ضروريا في مشروعه الفلسفي النقدي ؟ وماهي عقبات نفاذه في نسيج الثقافة العربية ؟ وماهي آليات التصدي لهذه العقبات ؟

ولمعالجة هذا الموضوع سوف نعتمد المنهج التحليلي النقدي من خلال تفكيك الموضوع إلى عناصره البسيطة وتقييم الأفكار وما يلزم عنها ثم الخروج بمفاهيم دقيقة وفي الأخير صياغة الأحكام المستنتجة.

2- مفهوم التفكير العلمي عند فؤاد زكريا

2-1 تعريفه

التفكير العلمي في تصور فؤاد زكريا هو ذلك النوع من التفكير المنظم والمتناسق ، ونستخدمه في جميع شؤون حياتنا أي في كل تعاملاتنا، المهنية منها والاجتماعية. وتبرز خاصية التنظيم فيه من خلال استناده الى جملة من المبادئ أو الشروط التي يمثل إليها على الرغم من تدفقه بشكل عفوي، ومعنى ذلك أننا حين نفكر بطريقة علمية ، فاننا نستخدم هذه المبادئ بتلقائية أو على غير شعور منا ولسنا بحاجة أثناء سريان عملية التفكير إلى التحقق في كل مرة من تطبيق هذه المبادئ وعدم نسيانها ، فتفكيرنا على سبيل المثال لا يسمح بأن نجمع بين النقيضين في الوقت نفسه ومن نفس الجهة ، ويرفض ان تقع الحوادث دون أسباب وأن يحدث شيء من لا شيء.

وينبها فؤاد زكريا ، في مقدمة كتابه المعنون التفكير العلمي ، أن هذا النمط من التفكير لا يقتصر على العلماء ولا هو تفكيرهم بالضرورة ، لأنه من حيث الأساس لا يركز على مشكلة متخصصة بحد ذاتها ولا على مجموعة مشكلات معينة يدرسها العلماء، كما أنه لا يعتمد على لغة علمية اصطلاحية يتداولونها فيما بينهم، كلغة الرياضيات مثلا ولا يشترط أشخاصا يتحكمون في المعارف العلمية ، أو يحفظونها عن ظهر قلب أو يبحثون في حل مشكلات العالم الطبيعي والإنساني باستخدام طرائق بحث خاصة بناء على معارف علمية سابقة بل هوكل تفكير منظم ، يمكن ان يتوفر لدى أشخاص عاديين ، لا يتقبلون من الآراء إلا تلك التي تنسجم مع المقتضيات العقلية والواقعية أي ما هو قائم على أدلة واضحة وموضوعية تشترك فيها عدة عقول مستقلة ويتجلى هذا في جميع سلوكياتهم الحياتية التي تنشأ عن استخدام سليم للعقل في علاقته بمعطيات الواقع وهذا ما يؤكده فؤاد زكريا في قوله " إن ما نود أن نتحدث عنه

إنما هو ذلك النوع من التفكير المنظم ، الذي يمكن أن نستخدمه في شؤون حياتنا اليومية أو في النشاط الذي نبذله حين نمارس أعمالنا المهنية المعتادة أو في علاقاتنا مع الناس ومع العالم المحيط بنا وكل ما يشترط في هذا التفكير أن يكون منظما وأن يبنى على مجموعة من المبادئ التي نطبقها في كل لحظة دون أن نشعر بها شعورا واعيا، مثل مبدأ استحالة تأكيد الشيء ونقيضه في آن واحد والمبدأ القائل أن لكل حادث سببا وأنه من المحال أن يحدث شيء من لا شيء." (فؤاد زكريا ، 2018، ص7)

ومنه علينا ان نفهم التفكير العلمي عند فؤاد زكريا بمعنى العقلية العلمية حيث نرصدها على مستوى الواقع لدى كل شخص يفسر الحوادث تفسيراً منطقياً ويتضاءل لديه الإعتقاد الجازم والحكم القاطع النهائي على الأمور كلها ونجده يميل إلى الترجيح والإحتمال وتغليب الظن ويهتم بوجهات النظر المخالفة لرأيه ويتحين الفرص لمعرفة ما يطلع عليها بذهنية منفتحة ويتريث في الحكم ببطلان الآراء المغايرة لرأيه تكريسا لموقفه سواء تعلق الأمر بآراء علمية أو دينية أو سياسية ...إلى حين يثبت الفحص الدقيق بطلانها.

اما إذا أردنا رصدتها على مستوى المجتمع ، فإنه بإمكاننا مطابقتها مع مبدأ التخطيط الذي تلزم به كل المجتمعات المتقدمة وتعتبره مبدأ أساسيا للإدارة والتسيير، وبإمكاننا إعتباره الإسقاط التجريبي أو الوجه العملي المباشر للتفكير العلمي في كل المجالات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والعلمية.

ما هو أصل هذا النمط من التفكير ؟

هذا النمط من التفكير هو خلاصة تفكير العلماء أو عصاراته، في مسار بنائهم للمعارف أو أو هو ما يترسب في أذهاننا حين نتفحص أسلوبهم في النظر إلى المشكلات وطريقة حلّها ، فمن الخطأ ان نعتقد أن النتائج التي حصل عليها العلم ولا يزال تتعلق بجوانب حياتنا المادية فقط ويقتصر تأثيرها على تغيير المظاهر المادية لحياة البشر وتحقيق فتوحات جديدة في معرفة الطبيعة واستغلالها ، بل إنها تمتد إلى أعماق من ذلك حيث

تؤثر على الذهنيات والعقول وتعرض عليها أسلوب تفكير له مميزاته الخاصة في التعامل مع المحيط. وتكسيها سمات وخصائص توجه تناولها لشتى المواضيع فماهي أبرز هذه السمات ؟

2-2 سماته:

أفرز المسار الطويل الذي شقه التفكير الإنساني عن إلغاء أنماط من التفكير أثبت تناقضها وبطلانها وأفرز خصائص تميز المعرفة العلمية وتفصلها عن بقية النشاطات الفكرية الإنسانية مهما تنوع ميدانها . ففيما تتمثل السمات الأساسية التي تميز المعرفة العلمية ؟

ا_ التراكمية: يدل هذا المفهوم على أن المعرفة العلمية تتطور من خلال تجميع وتكديس المعلومات والتجارب والبيانات على مر الزمن والقيام بفحصها والتحقق منها باستمرار بهدف تدقيقها وتعميقها وتصويب ما قد تتضمنه من أخطاء . مما يؤدي إلى تطور مستمر للفهم العلمي ، ومهما ظهر لنا في أي وقت من الأوقات أن العلم قد ركن إلى رأي نهائي في موضوع من الموضوعات ، فإننا لا نلبث أن نجده قد استبدله برأي جديد وقد عبر عن ذلك فؤاد زكريا في قوله " المعرفة العلمية أشبه بالبناء الذي يشيد طباقا فوق طباق مع فارق أساسي هو أن سكان هذا البناء ينتقلون دوما إلى الطابق الأعلى ، أي أنهم كلهم شيّدوا طباقا جديدا انتقلوا إليه وتركوا الطوابق السفلى لتكون مجرد أساس يرتكز عليه البناء " (فؤاد زكريا ، 2018، ص15)

ب- النسبية :

وينتج عن خاصية التراكمية مباشرة خاصية أساسية أخرى هي نسبية الحقيقة العلمية ، أي كونها متغيرة ومتطورة حتى وإن ظهر لنا أن العلم قد استقر على رأي ما في موضوع ما ولفترة زمنية قد تطول نسبيا ، فليس بالإمكان أن نعه رأيًا نهائيًا لأن المعرفة العلمية تتطور باستمرار مصوبة أخطاءها ، وهذه الخاصية تفتح معابر للتفكير وتعديل الرؤى لبناء نظريات علمية أكثر دقة وشمولية .

ج- التنظيم: يصل العلم إلى تحقيق فكرة نظام العالم ، الذي تظهر الموجودات فيه كثرة بالعدد وبالنوع وتجري الحوادث فيه بشكل معقد ومتشابك عن طريق المنهج ، أي تلك الطريقة العلمية التي ينتهجها الباحث أثناء دراسته لمعالجة مشكلة معينة تتعلق بظاهرة طبيعية أو إنسانية وتظهر في شكل خطة معقلنة أي مرتبة بشكل منطقي تقوم على خطوات بحث معينة تنتهي إلى نتائج فعلية. وبكل بساطة المنهج هو الطريق الواضح الواعي ، المنظم والمثمر إذ يفضي للإجابة عن مشكلة معينة. وهو عصارة العمل العقلي وأداته ويتجاوز في أهميته العلم نفسه ومختلف تطبيقاته لأنه أصل هذه الأهمية، إذ يشكل العنصر الأساسي الملزم للعلم مهما اعتراه من تعديل وتطوير الإلتزام بالمنهج يشكل مسلمة أساسية يقوم عليها العلم وهذا ما يميزه عن بقية الخبرات الإنسانية ،

د- السببية:

التسليم بالسببية يشكل الإطار الضروري الذي تفهم من خلاله كل ظواهر الوجود لتصبح علاقات معقولة يمكن أن يفهمها العقل الإنساني ويؤسس عليها علمه ، وهذا ما يفسر النقاشات العميقة التي دارت حول هذا المفهوم قديما وحديثا انطلاقا من ضبط تعريفه إلى ضبط طبيعة العلاقة الموجودة بين الحادث السابق الذي نسميه علة والحادث اللاحق الذي نسميه معلولا . وإذا كان النقد الفلسفي لتصور السببية لم ينتج أثرا مباشرا على تطور مسار العلم ، لانه ينتهي إلى مستوى الخطاب الفلسفي النظري. إلا انه يجب التنويه بأن معنى السببية الكلاسيكي المتمثل في العلاقة بين عامل وعامل آخر ينتج عنه أو يتبعه قد عدل فيما بعد وبتعبير دقيق تم توسيعه ليستوعب علاقات بديلة لعلاقة السببية، وقد تم ذلك قسريا ، عندما كشف البحث العلمي عن وجود ظواهر طبيعية وإنسانية بالغة التعقيد وبات من غير الممكن تطبيق علاقة السببية عليها مباشرة بمعنى ربط الظاهرة بسبب واحد ، كونها نتيجة لعدة عوامل متشابكة. و تقوى هذه الملاحظة في ميدان العلوم الإنسانية حيث تتجه الدراسة إلى

الإنسان ويحتد النقاش المنهجي أو الميتودولوجي فيه ، فإذا تقبلنا التفسير السببي بكل أشكاله في علوم الطبيعة واعتبرناها علوما معممة فلا يمكننا التغافل عن كون الظواهر الإنسانية ذات معنى وذات صلة بنظام قيمي وعليه لا يمكن تبسيط الموضوع واجراء المطابقة بين الإنسان والطبيعة إذ" يفصل هذه العلوم عن تلك أمان يتصلان بالموضوع والمنهج معا أولهما الطبيعة النوعية للظاهرة وثانيهما العلاقة الخاصة بين الباحث وموضوعه" (الشقيري عبد المنعم 2021، ص100)

3- ضرورته ومشروعيته الحضارية

1-3 - مرتكزات ضرورته

ينطلق فؤاد زكريا عند تناوله لأهمية التفكير العلمي بطرح سؤال أساسي هو: هل اتباع طريق العلم هو اختياري بالنسبة لمجتمعنا العربي؟ خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن المجتمعات المتقدمة قد حسمت موقفها من هذا السؤال منذ زهاء أربعة قرون. ونجده يجيبنا أن هذا الطرح لا يتضمن أية وجاهة ولا يستحق أن يطرح في عصرنا وعلى العكس من ذلك فمقاومة هذا النمط من التفكير هي الخسارة الأكيدة وهو ما يعبر عنه في قوله " والحق أن أية محاولة لاعتراض طريق التفكير العلمي في عصرنا الحاضر إنما هي معركة خاسرة" (فؤاد زكريا ، 2018 ، ص 11) فاتباع طريق العلم واتباع أسلوب التفكير العلمي هو ضرورة حضارية بل يعده فؤاد زكريا شرطا للإنتماء إلى عالمنا المعاصرو الخروج من منطقة الظل إلى منطقة التفاعل والتأثير ويعتبر فؤاد زكريا موضوع التفكير العلمي موضوعا ذا أهمية خطيرة بل يصنفه على أنه موضوع الراهن أو القضية التي يتم التركيز عليها في أيامنا ومناقشتها بشكل واسع في المجتمع العربي برمته وفي اعتقاده هو " موضوع الساعة في العالم العربي" (فؤاد زكريا ، 2018 ، ص7) ذلك أن أول خطوة وجب على العالم العربي ان يخطوها باتجاه النهضة تقتضي الإيمان بضرورة توطين التفكير العلمي في المجتمع ، لأن جذور التخلف ترتبط بالتفكير الخرافي الذي يحل محل التفكير العقلاني في الواقع العربي بشكل ملموس في

أغلب المواقف وأكثر الحالات حيث ترجح كفة الثقافة الشعبية على الرؤية العقلانية وتميل الأغلبية إلى تقبل الفكر السائد بدل نقده وفحصه مجددا. ولذلك توجب على المثقفين العرب حسب رأيه خوض معارك ضارية من أجل إرساء دعائم التفكير العلمي وهم يبذلون جهودا معتبرة ويتعرضون لصراعات قوية من أجل تثبيت مسلماته في المجتمع بهدف الوصول إلى تكوين عقلية عربية يكون التفكير العلمي فيها ثابتا أساسيا وأطارا مرجعيا في التعاطي مع كل الأمور وفهم الواقع ومعالجة مشكلاته والحكم عليه والتعامل معه والتحكم في مجرياته على غرار العالم المتقدم الذي نجح في بناء تراث علمي ، ترسب طيلة أربعة قرون وشكّل على تنوع أنظمتهم الاجتماعية واختلافها عقلية علمية يتميز بها الغالب الأعم من فئات المجتمع . وبالطبع ، ما من شك أن الأسلوب العلمي يشكل أفضل طريقة اتبعها الإنسان لمعرفة الواقع وتسخيرها " فليس هناك مجالان منفصلان : مجال العلم ومجال الحياة والمنهج العلمي ليس تقنية خاصة بذوي الاختصاص ، كما يختص خبراء التأمين بنظام الإحتمالات والقضاة بالقانون وعلماء الآثار المصرية بالهieroغليف ، بل هو أحد الوسائل المعطاة لكل إنسان وأكثر هذه الوسائل سهولة وضمانا لمعرفة العالم ، الذي انتظم فيه الإنسان: الكون والأرض والنباتات والحيوانات والأشخاص." (جان فواستيه، 1969، ص ص 8-9) . ولا أحد بإمكانه أن يستغني عن خدماته الجليلة التي تسهل حياة البشر وكل واحد منا مرتبط بتكنولوجياته في الطب والاتصال والنقل والزراعة ومختلف الصناعات والتعليم والأمن وغيرها وكل واحد منا تهمه تطبيقاته المدهشة كالسفر بسرعة الصوت والتواصل بسرعة الضوء ومقاومة العاهات بأنواعها ...

إن اتباع أسلوب التفكير العلمي بالنسبة لفؤاد زكريا هو ضرورة تعيد للشخصية العربية انسجامها مع نفسها وتعالج تمزقها بين ماضي مزهر وحاضر متخلف ، وتعالج فيها كبرياء مزيفا مستمدا من عدم مواجهة الواقع بكل معطياته والعمل على معالجته.

وهو يستدل على ذلك بالتطور الكبير الذي طرأ على كلّ مظاهر الحياة البشرية وعلى الأخص في القرون القليلة الماضية وهو تطور فاق بكثير ذلك الذي حدث في حقب زمانية ماضية كانت أطول، ولا أحد ينكر أنه يمثل نتيجة لتراكم ونمو المعارف العلمية واحترام وتبني أسلوب التفكير العلمي في هذه المجتمعات ولعل الفضل الأكبر في هذا الإنجاز الإنساني المبهري يعود إلى وجود شعوب أبقت قيمة هذا اللون من المعرفة وصارت تمنحه كل ضروب التشجيع وهي مجتمعات حاضنة للعلم ، بلغ نمو العقل فيها مرحلة النضج والوعي المعارض لانماط التفكير الذاتي العفوي والخرافي وجسدت مظاهر هذا الأسلوب العلمي في مجالات حيوية كالترية والإقتصاد والشؤون الاجتماعية إذ تم إخضاعها لمبدأ التخطيط الإستراتيجي وشملها تنظيم جد دقيق وامتد هذا الأسلوب ليشمل الفنون والرياضة وكل ما يهم الحياة الإنسانية .

وبعيدا عن أسلوب جلد الذات ، يذهب فؤاد زكريا إلى القول أن هذه العقلية العلمية ليست بالنكرة أو بالأمر الغريب أو المستجد على مجتمعنا العربي فقد شهد العصر الذهبي لدولة المسلمين انطلاقة متميزة من حيث الوتيرة والنضج الفكري في تأسيس التراث العلمي، سبق بها العلماء المسلمون بقرون زمانية الحضارة الأوروبية التي انطلقت في العصور الحديثة إذ حققوا تقدما علميا في حقول كثيرة إلا أن وتيرتها ولأسباب متعددة تباطأت ولم تستأنف مسارها بنفس القوة ولو تحقق ذلك لأنجز المسلمون حسب رأيه هوة حضارية بينهم وبين الأمم الأخرى بحيث تصبح منافستهم أمرا عسيرا جدا إن لم نقل مستحيلا، ولسنا نبالغ إذا اعتبرنا "أهم إنجازات تراثنا تأتت في مجال المنهج والمنهجية، وجاء الدور الذي قاموا به في تطور الحضارة محصلة لجهدهم في مؤسسة المنهجية. وفي إطار انفتاحهم على منجزات الآخروميراث الحضارات والثقافات الأخرى ، جاءت عنايتهم المشهورة بنقل ودراسة وتفعيل وتطوير المنطق الأرسطي الذي يمكن اعتباره أول محاولة متكاملة لمنهجية الإستدلال والتفكير. والمحصلة أن ترسم رصيد هائل من المنهجية . " (يمنى طريف الخولي ،

2017، ص50) نجده بينا في كل تصنيفات العلوم لدى المتكلمين ولدى المتصوفة ولدى الفقهاء والفلاسفة وكذلك في العلم الرياضي والعلوم الطبيعية .

وإذا كان تاريخ المجتمعات الإنسانية عموما والعربية خصوصا يعرض لنا صعوبة وتأخر في اكتساب الطريقة العلمية على بساطتها ويكشف انتشارها المحدود بين الناس والذي قد يصل إلى درجة استخدام رجل العلم نفسه للطريقة العلمية في مجال اختصاصه حصريا ، غافلا أو غير عابئ بمخالفتها تماما في جميع شؤون حياته الأخرى مكتفيا بما تلقنه من أحكام منذ نعومة أظافره وصادق عليها بعفوية وبسذاجة دون ان يعرضها للفحص العقلي والتمحيص، فإن ذلك لاعلاقة له البتة بالعلم، بل يرتبط بدرجة تغلغل العقلية العلمية على مستوى المجتمع والأفراد وتشربهم لها.

4- عوائق توطين المنهج العلمي في المجتمع العربي : يرى فؤاد زكريا أن السعي الجاد من أجل توطين العقلية العلمية في المجتمع العربي لا يمكنه أن ينجز إذا لم نشخص مختلف العقبات التي تحول دون ذلك ولم نعمل على إيجاد الحلول الصحيحة لمعالجتها وآليات تحييد تأثيرها . فما هي أهم هذه العقبات ؟

1-معاداة العلم :

تتوسع حيرة فؤاد زكريا ويزيد تعجبه حين يلاحظ أننا من ناحية نستمد فخرا واعتزازنا اليوم من ماضينا العلمي المشرق الذي شهد تقدما كبيرا تجسد في إنجازات هامة في مجالات معرفية مختلفة كالفيزياء والكيمياء والطب والرياضيات والفلك والتاريخ والجغرافيا إلى غير ذلك..."وكانت المقدمة الشرطية المفوضية منطقيا وتاريخيا وجغرافيا إلى مرحلة العلم الحديث " (يمنى طريف الخولي ، 2017 ، ص 50) ونحن نرتبط بهذا التراث أشد الارتباط ومن ناحية أخرى نقاوم العقلية العلمية في حاضرنا ونعترض عليها وقد يصل هذا إلى حد قهرها في المجتمع والتضييق عليها بين جدران المدارس والمؤسسات الأكاديمية ومخابر البحث فقط. كما يشد انتباهنا الإكتشاف العلمي الجديد وتتعلق أشد التعلق بالوسائل الجديدة التي ينتجها التطور العلمي أو بتكنولوجيات العلم في الوقت الذي نحارب فيه التفكير الذي يقف وراء صناعته ودون

أن نهتم بترباطهما و التباسهما ببعضهما وقد لا نتساءل عن سبب هذا الفصل الذي نضعه بينهما أو نعمل على تحليل أسباب عدم قبوله أو عن إمكانية معالجة هذه المفارقة العقلية بنسج علاقة متوازنة بين العلم كأحد مركبات الثقافة وبقية المركبات الأخرى. هذا التفكير الذي يمزقه التناقض ويتذبذب بين متناقضين هما قبول المنتج الحضاري المريح ورفض العقلية العلمية التي تشكل رحمه يشخص مشهد الفكر المتخلف في الساحة العربية حسب رأي فؤاد زكريا . " إذ من المفروض فيمن يزهو بإنجازاتنا العلمية الماضية أن يكون نصرا للعلم داعيا إلى الأخذ بأسبابه في الحاضر، حتى نتاح لنا العودة إلى تلك القمة التي بلغناها في عصر مضى ، أما أن نتفاخر بعلم قديم ، ونستخف بالعلم الحديث أو نحاربه، فهذا يبدو مستعصيا على الفهم . " (فؤاد زكريا ، التفكير العلمي ، ص 10)

إلا أن هذا التناقض أو التذبذب بين الموقفين في حد ذاته هو في رأيه حجة ترجح كفة العلم ، لأنه لا أحد منا مخير في مواجهة الواقع الذي يحيا فيه أو بإمكانه أن يستغني عن خدمات العلم الجليلة التي تسهل حياة البشر وكل واحد منا مرتبط بتكنولوجياته في الطب والاتصال والنقل والزراعة ومختلف الصناعات والتعليم والأمن وغيرها وكل واحد منا تهمه تطبيقاته المدهشة كالسفر بسرعة الصوت والتواصل بسرعة الضوء، ومقاومة العاهات بأنواعها ... ولذلك الحرب ضده محسومة مسبقا بالفشل .

ب-التصور المغلوط لعلاقة العلم باستخداماته:

يتساءل البعض كيف يمكن أن يكون طريق النهضة هو نفسه طريق العلم ، بينما نحن نشاهد في واقعنا كيف أن العلم يؤدي إلى حروب بيولوجية تفسد الحياة البشرية و كيف أنه يقدم للسياسيين أدوات التسلط والسيطرة والإعتداء والقمع ؟
يجيبنا فؤاد زكريا أننا لا نجد في طبيعة العلم ما يجعله قوة معادية أو مهدمة لأي نشاط روحي آخر ولا يمكن تفسير العداوات التي تحاك في كل الأزمنة من البعض ضد العلم إلا بكونها تجهل طبيعته وغايته في تفسير الحوادث بموضوعية وتجرد مما ينأى به عن دوائر المصلحة والسيطرة والإستخدام الضيق وكل أشكال العداء. ذلك أن

القوة التي تنتج عن العلم تبقى رهن توجيه البشر لها ، انطلاقا من مواقفهم الأخلاقية دون أدنى شك. فبالإمكان أن توجه إلى الخير والنفع إذا رافقتها الحكمة أي الوعي الصحيح لغايات الوجود الإنساني، فلا خطر في العلم إذا لم يحوله السياسي إلى أداة دمار وخطرسة ومثل هذا النوع من الإدراك لا يمنحه العلم لأنه ليس من مهامه ، فهو يقدم عنصرا ضروريا للتفوق ولكنه يظل عنصرا غير كاف لوحده ولذلك يكشف لنا الواقع أنه قد لا يتحقق تقدم إنساني على الوجه الصحيح بمجرد تقدم العلم لأنه غير قادر لوحده على منح التوازن للحياة البشرية. وإن كان أداة لا غنى عنها للفهم السليم المعادي للجهل والخرافة والتطرف والكبر. لذلك لا يكتفي فؤاد زكريا بالدعوة إلى الإهتمام بالتفكير العلمي ولا بعده شرطا ضروريا وكافيا لوحده في نهضة المجتمع بل يهتم أيضا ببقية مركبات الثقافة كالفن والشعر والميتافيزيقا والدين وكلها حقول للمعرفة يشترط عقولا نيرة تستوعب مضامينها وأهدافها السامية وهو في ذلك يقول "إن النظرة المتكاملة 'أي الإنسان ينبغي أن تدخل الفن والشعر والميتافيزيقا وطقوس العبادة في عالم المعنى ، عالم التجارب التي تضيف ثراء على حياة الإنسان وتوسع أفق الروحي وتزيد من فهمه لنفسه والعالم المحيط به" (فؤاد زكريا ، 1975، 416).

وهذا ما يذهب إليه المفكر برتراند راسل (1872_1970) الذي يعتقد أن النظرة المتوازنة للحياة البشرية تدرك جيدا أن " القوة الجديدة التي يخلقها العلم تكون خيرة ، فقد وجب أن يقترن بزيادة المعرفة زيادة في الحكمة وأعني بالحكمة الإدراك السليم لغايات الحياة. وهذا في حد ذاته أمر لا يقدمه العلم فزيادة العلم لا تكفي لتحقيق رقي صادق وإن قدمت واحدا من مقدمات الرقي، ولذلك الاهتمام بجانب دون بقية الجوانب وضع يحتاج إلى تصحيح إذا أردنا أن ننظر إلى الحياة نظرة متوازنة." (برتراند رسل ، 2008، ص7)

ج- النزوع إلى التفكير الأسطوري والخرافي :

والمقصود به اعتماد عناصر خيالية والنأي عن الواقعية والموضوعية في تحليل وفهم مختلف الظواهر الطبيعية والإنسانية وكان هذا النمط من التفكير منتشرا قبل ظهور

العلم حيث استخدمت الأساطير لتعليل ظواهر العالم ومنه نجد أن التفكير الأسطوري يؤمن بالسببية على عكس التفكير الخرافي فهو تفكير رافض للعلم ومنكر لمناهجه ولذلك يمكن القول أن استخدام التفكير الأسطوري في وقتنا يدل على تأخر عن عصر العلم أو يمثل مرحلة ما قبل العلم ونكوص التفكير العقلاني في المجتمع أما استخدام الخرافة فهو يمثل حالة مرضية في عصر العلم. ولا يمكننا الجزم باختفاء النزعة الأسطورية والخرافية في المجتمع العربي لأن تأثير التفكير العلمي فيه لا يزال ضعيفا ويظهر ذلك في اعتقاد الناس على العموم وباختلاف مستوياتهم الثقافية بالدجل والتفافهم حول قارئ الطالع وتشاؤمهم من بعض الأرقام وبعض الحيوانات وحتى بعض الأشخاص ولجوءهم إلى الشعوذة لحل مشاكلهم بدلا من مواجهتها و اعتماد حلول علمية عقلانية لحلها ويغذي ذلك شعور عميق بالعجز وافتقاد الثقة في النفس ونبض المقاومة والإفتقار إلى تأييد الحاضنة الإجتماعية .

وقد يلاحظ البعض أن هذا النمط من التفكير ليس محصورا فقط في مجتمعنا العربي بل قد نجده أيضا في المجتمعات المتحضرة ، حيث يقرأ الطالع بأحدث الأجهزة الإلكترونية ويقتسم شعور التشاؤم بالرقم 13 وتستحضر الأرواح وفي هذا يجيبنا فؤاد زكريا ان درجة تغلغل التفكير العلمي في هذه المجتمعات جعل نزوع بعض الأفراد فيها إلى أنماط التفكير الأخرى يعبر عن حالات شاذة تصنف بالهامشية، كون المناخ الفكري السائد المؤطر لحياتهم تضبطه العقلانية والمنطق وفي المقابل نجد في مجتمعاتنا العربية معارضة شديدة وصراعا صفريا بين نمطي التفكير العلمي والخرافي إذ ان كل واحد منهما يريد إلغاء الآخر. ذلك ان الفكر الخرافي يتغذى من الجهل و نشهد أخطر حالاته عندما يتم ربطه بفهم تسطيحي للدين وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق ببعض الحقائق الدينية التي تتحدث عن السحر والحسد والجن إذ يتصلب ويتحول إلى تحجر وانغلاق وتطرف وفي بعض الحالات إلى عنف . ويذهب فؤاد زكريا إلى أن الدين الإسلامي برئ من هذه التهمة ولا يمكن أن يستغل لتأسيس الخرافة إذ يظهر لنا جليا كيف يعمل النص القرآني على استفزاز الطاقة الإستدلالية

عند الإنسان بغرض تحفيزها وتشغيلها ويطالبه بالبرهنة على أحكامه في مواقف مختلفة ويعرضها علينا مهما كانت دون حجب ويصدمه بتناقضاته في أكثر من موضع ويحذره من التقليد الأعمى ويحثه على المراجعة المستمرة لأرائه حيث يفتح بابا واسعا للحوار المتحضر ويصل إلى مستوى تحميل الإنسان مسؤولية سمعه وبصره وفؤاده.

د- الخضوع للنمط السلطوي :

والمقصود هنا تدخل السلطة في مجال المعرفة ، حيث تفرز سلطة ما معيار الحقيقة وتتحكم فيه ولا تناقشه ومن أمثلتها المذهب أو الحزب أو الدولة أو التراث أو الأعراف والتقاليد أو أصحاب النفوذ ... ويتم انتقاء هذا المعيار لغاية خارجية أو مصلحة ما دون اهتمام بوجهاته ومعقوليته. ومن أمثلة ذلك ، كلما كان الرأي قديما وموروثا عن السلف كان رأيا صوابا ، ويعارض فؤاد زكريا هذا الخضوع لأنه يحمل من جهة ثقة منقوصة في الذات ومن جهة أخرى ثقة زائدة في الأسلاف ، فمنطق العقل يظهر لنا أن بعض الآراء القديمة باطل وبعضها صحيح وهي في كل الحالات آراء حكمها درجة خبراتهم ومستوى عصرهم وأسلوب معيشتهم وهذا ما يفرض علينا تمييز الصواب فيها من الباطل واتقاء التسرع في إسقاطها عفويا على ظروف عصرنا التي جددت فيها متغيرات أخرى .

وقد تتمثل السلطة في الإنتشار بين الجمهور ، وتستمد الآراء صدقها من الشيوع بين الناس ، ومن الناحية النفسية يشعر المروج لها بالإطمئنان إذ تقوي انتماءه للجماعة إذ "كلما كان الرأي منتشرا ومألوفا كان في قبوله نوع من الحماية لصاحبه إذ يعلم أنه ليس الوحيد الذي يقول به ، بل يشعر بدفع الجموع الكبيرة وهي تشاركه إياه ويطمئن إلى أنه يستظل تحت سقف الكثرة الغالبة " (فؤاد زكريا ، 2018 ، ص54).

ويرفض فؤاد زكريا هذا المعيار لأن الإنتشار لا يمكن أن يدل بالضرورة على الصحة فبعض الآراء الواسعة الإنتشار صحيحة ومخالفتها أمر باطل مثل ممارسة الرياضة وبعضها خاطئ كتفضيل أغنية تافهة رائجة على اروع المقطوعات الموسيقية أو

رواية بوليسية منتشرة على رواية من الأدب الرفيع. فهذا الأسلوب يكرس الإعتماد على الغير ويقضي على الإبداع. وإذا كان من غير الممكن واقعا التخلي تماما عن سلطة من السلط في مجال الفكر ، فإنه ينبغي الخضوع لها يجب أن يكون مشروطا بفحص ينشطه عقل متبصرواعي يؤمن بالنمو والتطور .

ومن مصادر سلطة الرأي أيضا النفوذ أو الشهرة ، إذ يكتسب الرأي مصداقيته لدى الناس إذا كان صاحبه ذو دراية في حقل ما ويتحول هذا الأمر إلى مشكل عندما تنتقل هذه المصداقية إلى حقب زمانية أخرى ويتفاقم عندما ينتقل النفوذ من حقل إلى حقل آخر مغاير له مثل استغلال النفوذ الديني في العلم أو في السياسة أو استغلال النفوذ السياسي في العلم وتطبيقاته. ويستهن فؤاد زكريا أيضا هذه السلطة التي قد تحتكر المعرفة ، فقد يكون شخص المؤهل في تخصص ما غير مؤهل في تخصص آخر أو يكون جاهلا به. ولذلك ينبه إلى ربط الشهرة بمجال تخصص الشخص وزمانه وألا تمتد إلى مجالات لا علاقة له بها.

هـ- التعصب :

وهو اعتقاد الشخص أنه يملك الحقيقة لوحده دون ان يؤسسها على منطق أو حوار عقلائي ولا يقرب رأي آخر قد يخالف رأيه . وياخذ صورا متعددة كالتعصب لفكرة أو لمذهب أو لدين أو لقومية وغالبا ما يكون الشخص المتعصب مصطبغا بأفكار جماعة ارتهنت حريته مقابل مصالح وامتيازات معنوية ومادية منتفعة بتعبئته ضمن حشودها كي تنوب عنه في التفكير والقرار ونادرا ما يتفطن هذا الشخص إلى ما يعانيه من استيلا ب وإذا ما حصلت مراجعات في حياته نجدها تظهر جد متأخرة . ويصف فؤاد زكريا التعصب بالخطورة لأنه يغلق كل فرص الحوار والتفاعل والتفكير مع الآخر ومنه كل فرصة للتصحيح والعلاج والتطور ، لان المتعصب يخاطب الجميع من أعلى الشجرة ، فهو يتعالى عن الجميع وبذلك يغذي الصراع الإجتماعي ويبرئ المجتمع للإنقسام والتصدع وينتج بؤر التوتر فيه كمرحلة تمهيدية للحروب الأهلية. ولذلك نجده ينبه إلى ضرورة تثبيط كل الممارسات العنصرية في مهدها لأنها

علاقات اجتماعية شاذة ومسمومة ويمكن القضاء عليها بالتركيز على تقوية المنافع المشتركة بين أطراف المجتمع في إطار تبادلي عادل لأن المصالح بين الناس دائمة والتعاون يقوي النسيج الاجتماعي وتعميم هذا التبادل إلى كل نواحي الحياة .

ي- الإعلام المضلل :

يذهب فؤاد زكريا إلى القول أن هذا النمط من الإعلام بأنواعه المسموع والمكتوب والمرئي يعمل على تخدير العقول وتعبئة الأفراد في شكل حشود والتأثير على قراراتهم من أجل تحقيق ربح تجاري نتيجة ترويج ثقافة الاستهلاك أو تحقيق الفوز الانتخابي في المنافسات السياسية ولذلك يعتمد أشد الاعتماد على الدعاية ، إذ أنه يركز أثناء عرض مادته الإعلامية على الجانب الذي يخدمه ويسكت عن الجوانب الأخرى أو يتعمد إغفالها وفي هذا خرق واضح للموضوعية وتضليل للرأي العام واستخفاف بالذكاء الإنساني وتعميق لأزمة العقل في المجتمع . حيث أنه يزيد من تضيق الخناق على العقل الفطن ، الناقد بهدف إزالته أو تعطيله في أخف الحالات . ولا علاج لهذا الوضع إلا بإقرار حرية الرأي في المجتمع وتشجيع التفكير الحر ، الذي يكرس الأخذ بالعقل عند آخر حد يستطيع بلوغه والإجتهاد في فهم الدين وتعلقه بروح إيمانية صادقة . وبمكافحة أتماط الاستبداد السياسي وتأسيس دولة يعلو فيها القانون على الجميع وفي هذا يتطرق فؤاد زكريا إلى ما يعانيه المعارض السياسي في العالم العربي من تضيق واتهام بالخيانة وربما الكفر عندما يعبر عن وجهة نظر مختلفة .

ويذهب فؤاد زكريا إلى الجزم بأن قدرتنا على معالجة قضايانا الثقافية والاجتماعية بكيفية علمية سليمة مهددة بشكل خطير بهذه العقبات التمزقة بالعقل العربي وهو يؤكد على هذا الأمر في قوله " ولقد سبق . لكاتب هذه السطور أن دعا مرارا إلى أن نحمي الأجيال الجديدة من أبنائنا — إن كنا يائسين من الأجيال القديمة — من هذه العقبات عن طريق إدخال المبادئ الأولية للتفكير العلمي — بطريقة شديدة التبسيط — في برامجنا التعليمية، بحيث يَنْتبه النشء منذ صغره إلى خطورة المظاهر التي يراها في المجتمع المحيط به للخرافة والسلطة المتطرفة لأعيد ترديد هذه الدعوة، آملا

أن يتأثراً بكلماتي مسئول ذو نفوذ، و متمنياً أن يكون هذا المسئول من الاستنارة بحيث يُدرك مدى أهمية الموضوع الذي أدعو إليه، وهي أمنية أرجو ألا تكون عزيزة المنال. (فؤاد زكريا، 2018، ص 83)

5-الخاتمة

لقد تطرق فؤاد زكريا إلى أهم التحديات التي تواجه المجتمع العربي في دمج سمات التفكير العلمي في العقل العربي بغرض إرساء العقلانية في نسيج الثقافة السائدة واقترح أرضية من المفاهيم والأفكارا لتي من شأنها أن تكافح هذه التحديات وتذللها ويمكننا أن نستخرج من هذه الأرضية آليتين مهمتين الأولى تتمثل في بناء الدولة الوطنية التي تكفل الحريات بكل أنواعها وتضمنها وتضبط التناقضات في النسيج الإجتماعي بضمان المصلحة العامة والآلية الثانية تتمثل في الإنتقال إلى نظام تربوي تعليمي يكسر الحلقة مع أنماط التفكير اللاعلمية ويمنح القدرة على المواجهة النقدية مع المحلي والوافد بغرض بناء مجتمع جديد يستفيد من ماضيه ويتطلع إلى مستقبله ويعيش حاضره.

قائمة المصادر:

- زكريا، فؤاد ، 2018، التفكير العلمي، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي
- زكريا، فؤاد. 2017، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، المملكة المتحدة ، مؤسسة هنداوي

قائمة المراجع :

- الخولي ، يمنى طريف، 2017، توطين المنهجية العلمية ، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي .
- فوراستيه ، جان ، 1969، معايير التفكير العلمي ، ترجمة فايز كم نقش ، لبنان ، منشورات عويدات .
- رسل ، برتراند، 2008 ، النظرة العلمية، ترجمة ، عثمان نوية، العراق، الهدى للثقافة والنشر.